مجلة فصل الخطاب Journal of Fasloel-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 15، عدد رقم:03، سبتمبر 2026، صص: 121- 137

تاريخ الاستلام(2025/11/11) تاريخ القبول (2026/09/29) تاريخ النشر(2026/09/30)

جدلية الأدبي والعقلي في الخطاب الشعري عند المتنبي مقاربة من منظور النقد المعرفي

The DialecticoftheLiterary and the Rational in al-Mutanabbi'sPoeticDiscourse: A Cognitive Critical Approach

محمد عروس

جامعة التبسي تبسة (الجزائر)، arousmohammed@univ-tebessa.dz

ملخص:

يُعَدُّ الشعر العربي كنز أسرار الوجود العربي عبر سيرورته التاريخية، بما يتسلل إليه من أفكاروتصورات، وما يحمل من رؤى وتوجهات. وينشأ نتيجة ذلك جدلية بين ما هو عقلي تصوري وما هو أدبي لغوي. وتتمثل الإشكالية التي يطرحها البحث في السؤال الآتي: كيف تَمَثَّلَ ما هو عقلي تصوري فيما هو أدبي إبداعي؟ ويتفرع عنه السؤالان الآتيان: كيف تشَكَّلت النزعة العقلية في الخطاب الشعري عند أبي الطيب المتنبي؟ وما هي القيم المعرفية التي مَثَّلَت مداراً للتجربة الشعرية عنده؟ ويهدف البحث إلى الكشف عن القيم العقلية المجسَّدة في النص الشعري عند المتنبي من خلال نماذج مختارة وفق رؤية النقد المعرفي، وأهم النتائج المُتَوَصَّل إليها هي أن التجربة الشعرية عند المتنبي تجسدت عبرنسقية عقلية تصورية وأخرى لغوية حجاجية أكسبت النص قيمةً معرفيةً بما يحمله من أبعاد منطقية وفلسفية وتأملية.

كلمات مفتاحية: النزعة العقلية؛ النزعة الفلسفية؛ النزعة التأملية؛ النقد المعرفي؛ التشكلات المنطقية؛ التشكلات الحجاجية، أبو الطيب المتنبي

Summary:

Arabic poetry may be regarded as a repository of the secrets of the Arab experience throughout its historical development, incorporating a wide

المؤلف المرسل: محمد عروس الإيميل:arousmohammed@univ-tebessa.dz

range of ideas and conceptions while articulating diverse visions and intellectual orientations. This inevitably gives rise to a dialectic between the conceptual and rational on the one hand, and the literary and linguistic on the other. The central question addressed by this study is: How is the conceptual and rational dimension represented within literary and creative expression? This overarching question gives rise to two further questions: How is the rational tendency manifested in the poetic discourse of Abū al-Ṭayyib al-Mutanabbī? What epistemic values constitute the central axis of his poetic experience? The study aims to uncover the rational values embodied in al-Mutanabbī's poetic texts through selected examples, approached from the perspective of cognitive criticism. The principal findings indicate that al-Mutanabbī's poetic experience is articulated through both a conceptual-rational system and a linguistic-argumentative one, thereby endowing his poetry with significant epistemic value through its logical, philosophical, and contemplative dimensions.

Keywords: Rational tendency; Philosophical tendency; Contemplative tendency; Cognitive criticism; Logical formations; Argumentative formations; Abū al-Ṭayyib al-Mutanabbī

1. مقدمة:

يمثل العقل البشري معجزةً إلهيةً، تم بموجبها اعتلاء الإنسان هرم الوجود الحياتي، فهو الكائن المفكر والمدبر والمتذكر من تلقاء ذاته، بما أودع الله عز وجل في هذا العقل من أسرار، وبما حباه من كينونة متميزة. تجعل التوافق قائماً بين كل الذوات الإنسانية حول طرق التفكير وإمكانيات التعلم وطرق الاستدلال، بما يكفل التفاهم والتواصل بين البشر، ويولد مساحات لتداول الأفكار سواء أأفضت إلى الاتفاق أم الاختلاف؛ فالعقل البشري هو الذي يوصل إلى ذلك، من خلال المقدمات التي يضعها المتكلمون، أو النتائج التي يتوصل إليها المتحاورون. وقد عَدَّ بعض المفكرين التفكير دليل الوجود البشري في مقولة ديكارت المشهورة "أنا أفكر، إذن أنا موجود". وقبل ذلك كان للرسائل السماوية القسط الأوفر في إعطاء العقل أهمية بالغة، من خلال صيغ الخطاب المتنوعة ﴿أفلا يعقلون﴾ (سورة يس من الآية 68) ﴿أفلا يتفكرون﴾ (سورة الأنعام، من الآية 50) ﴿أفلا يتدبرون﴾ (سورة محمد، من الآية 24)، بل إن من حُرِم نعمة العقل حُكِم عليه بالجنون، وسقطت عليه التكاليف الشرعية، والقانونية على السواء، لأن محلها لم يعد موجوداً.

ولذلك كان كل خطاب متعلقاً بهذا العقل بالأساس، ومن ذلك الخطاب الشعري الذي يسعى إلى إقامة التواصل بين ذات منشئة للخطاب وذات أو ذوات متلقين له. وبقدر

امتلاك هذه الذوات جميعاً نسقيةً متميزةً في التفكير بقدر ما يحمل ذلك من قيم معرفية، يسعى المبدع إلى نقلها من عالم الوجود بالقوة في ذهنه إلى عالم الوجود بالفعل، عن طريق اللغة وما تحمله من مقومات بيانية، وبما فيها من محمولات معرفية وعاطفية وتصويرية. وكل ذلك رهين الشرارة الأولى وهي آليات التفكير التي يشتغل عليها الذهن، فتجعل قوة المنطق باديةً في هذا النص، ومتخلفةً في نص آخر، وتجد القيم الحجاجية للخطاب ظاهرةً هنا ومتعثرةً هناك.

وكون النقد المعرفي نقداً شمولياً يَتَّخِذُ من اللغة النصية نقطة انطلاق، ويبحث في آليات اشتغال العقل في إنتاج المعرفة، وَيَعُدّ المعرفة مقصودةً لذاتها في النص، وليست مجرد أمر عارض، أو قضية ثانوية، فإنه يتسلح بكل المعطيات المنهجية في الحقول النقدية الأخرى، لاستكناه ما في النص من قيم معرفية[1]. إذ إن غايته البحث في المعرفي في النص بدءا بطرق تشكيل النص وصولا إلى المعرفة المبثوثة فيه، الأمر الذي يجعلنا نتخذه رؤيةً منهجيةً في هذه الدراسة. **وسنناقش فيها الإشكالية الآتية:** كيف تَمَثَّلَ ما هو عقلي تصوري فيما هو أدبي إبداعي؟ ويتفرع عن ذلك السؤالان الآتيان: كيف تشَكَّلت النزعة العقلية في الخطاب الشعري عند أبي الطيب المتنبي؟ وما هي القيم المعرفية التي مَثَّلَت مداراً للتجربة الشعرية عنده؟

2. تَشَكُّلات النزعة العقلية في الخطاب الشعري عند المتنبي

1.2 التشكلات النسقية

تتعلق التشكلات النسقية بآليات اشتغال الذهن لإنتاج الخطاب الشعري، وتتحدد بما لهذا الذهن من قدرة وكفاءة لإنتاج الخطاب، بما يكفل له ذلك الاشتغال؛ من نسقية منطقية وحجاجية تجعل الخطاب متناسقاً، والأفكار لها من المعقولية والمقبولية ما يحقق الغاية النصية وذلك ما يكتسب به النص الشعري قيماً مختلفةً؛ عاطفية، ومعرفية. وتتمثل تلك التشكلات النسقية في منطقية الطرح وحجاجية الخطاب.

ويكفي شرابي الطيب المتنبي قوة حجة ما أورده ابن جني شارح ديوانه والعارف بأسراره بما نصه «وحقا أقول: لقد شاهدته على خُلُقٍ قَلَّمَا تكامل إلا لعالم مُوَفَّقٍ، فأما اختراعُه للمعاني وتغلغُلُه فيها واستيفاؤه لها فما لا يدفعه إلا ضدٌّ، ولا يستحسن معاندته إلا نِدٌّ، وما أحسِبُني رأيت أحداً يتناكر فضل هذا الرجل وقتاً من زمان إلا وشاهدته بعد ذلك

قد رجع عنه وعاد إلى تفضيله، وإذا تأملت أيدك الله هذا من أحوال هذه الطائفة وجدته كما ذكرت، وإنما ذلك لسمو مطالعه وخفاء مقاطعه وقوة مادته وشاذِّ نادته، فإذا أُعملت فيه مطايا الفكر، وانتهجت له طرائق النظر، وطال البحث عنه، وتكرر التأمل له خرج على ذلك خروج المشرفي على الصقال، ولم يسع العذول غير تفضيله على كل حال»[2]، وعليه فإن الخطاب الشعري عند المتنبي تَمَثَّل فيه من الأسرار المنطقية والحجاجية ما حقق به وجوده المعرفي.

2.2 التشكلات المنطقية:

عرفت الثقافة العربية جملةً من التحوُّلات الجوهرية باتساع رقعة الدولة الإسلامية، ومن أبرز تلك التحولات التحول نحو عقلانية الخطاب، ومنطقيته، سواء أكان نثريا أم شعريا، وهو « إخصاب أفرز مقولة "العقل" التي سرعان ما تحولت إلى أحد "الثوابت البنيوية" الأساسية للخطاب الثقافي بصفة عامة والأدبي صفة خاصة»[3]، والبحث في طبقات التفكير عند المتنبي، وخصوصاً في الفترة التي اتصل فيها ببلاط سيف الدولة، وما فيه من حوار متعدد الجوانب؛ اللغوية، والأدبية، والنحوية، والفلسفية، يقود الدارس إلى تواشج تلك المنظومة في شعره في بناء محكم أساسه منطقي، وتمظهره بياني، و عمقه معرفي. وقد عَدَّ "فاروق حسان" «أن التطور الذي لحق بشعر المتنبي أثناء اتصاله بالفارابي في بلاط سيف الدولة إلى التعرف على خصيصة من أهم خصائص شعره في تلك الحقبة. وهي التفكير المنظم الدقيق، وتوليد المعنى بذكاء، ووحدة التعبير، والتدليل على قضاياه دون انفعال، والعناية بأقيسة المنطق»[4]. وهو الملمح الذي يعد منطلقاً للبحث في القيم المعرفية وأساسها المنطقي في شعر المتنبي.

يؤسس المنطق لبعد معرفي أساسه محاورة الذهن وإقناعه، بما يستقيم في عرف كل ذي لُبٍّ سليم، وفهم مستقيم. ويتخذ الشاعر من تلك التصورات المنطقية آليات لبناء المعنى وتثبيته في خلد المتلقي، وتحويل ذلك الملفوظ التعبيري إلى آلية لبناء المعنى، وتحقيق فاعلية النص. ويستوقفنا هنا قول المتنبي[5]:

وَكَمْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا   وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

وربما تعود الكثير من الأبيات الشعرية التي أبدعها المتنبي، ومازال يستشهد في المواقف، ويرددها الألسنة، بمناسبة وبغير مناسبة، إلى ما فيها من مقدمات منطقية، تحيل

إلى نتائج معقولة في الذهن، ومقبولة في دنيا الناس، وصالحة في المواقف المشابهة، إذ كلما حضر الموقف كان الاستحضار، والتَّمَثُّل، والاستشهاد. ومن ذلك قوله[6]:

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ

فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أمر عظيم

والبيتان يقومان على مقدمة كبرى تحدد الهدف، حيث وضع الشاعر تصورا عقليا لما يروم الحديث عنه وهو طلب الشرف والمجد، وهو هدف له مقدمة شرطية صغرى وهي فعل المغامرة. وهاتان المقدمتان تستوجبان تحديدًا منطقيا تضبطه طبيعة الفعل وهو المغامرة، وطبيعة الهدف وهو الشرف الرفيع. ويتمثل هذا التحديد المنطقي في أن من يروم ذلك لا بد أن يسعى لنيل ما لا يستطيعه إلا من استجمع كل الأسباب لخوض المغامرة، فكل ما دون النجوم لا يمثل هدفاً. وهي آليات لبناء المعنى تُقدم فيه المعرفة على أساس منطقي، أي أنها أسباب تؤدي إلى نتائج، وتوصل إلى المعنى وهو تحقيق المجد. وعليه فهذه المقدمات المنطقية تؤدي إلى النتيجة المطلوبة على أساس الصيغة المنطقية: إذا كان فلا بُدَّ. ذلك أن المنطق كما يقول الجرجاني صاحب التعريفات: «آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر»7. وعليه كان الاشتغال المعرفي للنقد يتخذ من الإدراكات الذهنية منطلقاً لبناء التصورات وإقامة الأحكام.

وهذا التأسيس المنطقي الذي ورد في البيتين الشعريين يسنده تأسيس حجاجي قوامه التمثيل بما هو واقعي، وإن كان كل من جربه لم يرو قصته للآخرين فمن مات لم يرو ولن يروي لنا طعم الموت، ولكنه عصف ذهني، يتخذ من موت الناس في معترك الحياة، مُسَلَّمَةً تستوجب التصديق، فالموت واحد سواء أتعلق بموت في أمر حقير أم ارتبط بأمر عظيم. وعليه فمن باب الاستلزام المنطقي أنه إذا كان الأمر كذلك أي إذا كان طعم الموت نفسه، وحشاشة المرء تذوي في الأمرين معا، فالأجدر بالعاقل ألا يطلب الدنايا وأن يطلب المعالي مادام الموت نفسه.

3.2 التشكلات الحجاجية

الحجاج طريقة في التعبير، لبيان الحقائق، وجعل الآخر يصدق ما يريد منشئ الخطاب توضيحه، وله أدوات لغوية عديدة تبين أن الخطاب حجاجي، وهذا الأمر واضح من

خلال الأساليب اللغوية المستخدمة؛ كأدوات الربط، والتوكيد، والتكرار، غير أن ما يهمنا هنا، ونحن نبحث الأسس المعرفية والذهنية للخطاب العقلي في الخطاب الشعري عند المتنبي، هو تشكلات الحجاج من خلال المعرفة المعتمدِ عليها في بناء الأفكار، وجعل تلك الأفكار مستنداً لإقامة الحجة على ما يريد تبليغه للمتلقي، ومن ذلك هذه الأبيات التي يتضافر فيها ما هو لغوي، مع ما هو حجاج معرفي، لتحقيق فاعليةالخطاب ومعرفية النص.

يقول أبو الطيب المتنبي[8]:

وَمُدْقِعِينَ بِسُبْرُوتٍ صَحِبْتُهُمُ   عَارِينَ مِنْ حُلَلٍ كَاسِينَ مِنْ دَرَنِ
خُرَّابِ بَادِيةٍ غَرْثَى بُطُونُهُمُ   مَكْنُ الضِّبَابِ لَهُمْ زَادٌ بِلَا ثَمَنِ
يَسْتَخْبِرُونَ فلا أُعْطِيهِم خَبَرِي   ولا يَطِيشُ لهم سَهْمٌ مِنَ الظِّنَنِ
وَخَلَّةٍ فِي جَلِيسٍ أَتَّقِيهِ بِهَا   كَيْمَا يُرَى أَنَّنَا مِثْلَانِ فِي الْوَهَنِ
وَكِلْمَةٍ فِي طَرِيقٍ خِفْتُ أُعْرِبُهَا   فَيُهْتَدَى لِي فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى اللَّحَنِ.

تتمثل المعرفة الأساسية في هذه الأبيات في طبيعة المجتمع الذي يحيط بالشاعر على وجه الخصوص في هذا الموقف الحياتي -والذي لا يخلو زمان من أمثالهم- إذ هو مجتمع يخلو من القيم النبيلة والأخلاق العالية، ويتشبث بدنايا الأخلاق والرذائل. ومثلما هي المقابلة اللغوية كأسلوب لغوي حجاجي كذلك هي المقابلة المعرفية، فبقدر خلوهم من الحلل الأخلاقية الجميلة اكتسوا بالأخلاق المرذولة وهي بمثابة الأوساخ، " عَارِينَ مِنْ حُلَلٍ كَاسِينَ مِنْ دَرَنِ".

غير أن تقلبات الزمان تفرض على المرء معاشرة من لا يرغب فيه، وصحبة من لا يطمئن إليه، " وَمُدْقِعِينَ بِسُبْرُوتٍ صَحِبْتُهُمُ"، ويشرح الواحدي دلالة هذه العبارة بقوله: «يريد الصعاليك الذين يجلسون على الدقعاء المفازة التي لا نبت فيها»[9]، والسبروت الشيء النزر والأرض القفر والمفلس. وأبو الطيب المتنبي، على ما في نفسه من أنفة وعزة، وعلى ما له من شعور بالعظمة، ورغبة في طلب المعالي، تضطره الظروف إلى معاشرة هؤلاء المفلسين، والصعاليك، والفقراء، والذين لا يرضون بالمعالي بل لا يطلبونها أصلاً، إذ علامات الفقر بادية على الأجساد، وأمارات الضعة أصيلة في الأذهان. إذ هم لصوص في طبعهم، ولا زاد لهم إلا ما تذود به الطبيعة من بيض الضب، وكلها أفكار تدور في فلك المهانة والضعة.

وبعد بيان الحجج المعرفية التي جعلته يصاحبهم، على ما في طباعهم وأحوالهم مما تأنفه النفس الطموح ولا تألفه، يتجه إلى أن هذا الوضع له واقع معرفي خاص به، فهم يستخبرون عنه لمعرفته، وتحديد الطريقة التي سيعاملونه بها، إن كان من الفصيل المدقع، أو ممن يفترض أن يجعلوه هدفا لهم، وإن كان ظنهم يغلب على أنه ليس منهم وإن ادعى بحاله التمثيلية أنه ليس أبا الطيب[10]:

يَسْتَخْبِرُونَ فلا أُعْطِيهم خَبَرِي ولا يَطِيشُ لهم سَهْمٌ مِنَ الظِّنَنِ
وَخَلَّةٍ فِي جَلِيسٍ أَتَّقِيهِ بِهَا كَيْمَا يُرَى أَنَّنَا مِثْلَانِ فِي الْوَهَن

غير أن الوجود المعرفي الخالص للإنسان وهو اللغة، كمقوم وجودي يحدد الهويات ويصنع الكيانات، لم يستطع إخفاءه والتبرم منه باللحن الذي يلحنونه، وهذا الأمر يؤكد معرفة ضمنية أن هؤلاء اللصوص ليسوا من العرب بل هم الأخلاط الذين دخلوا المجتمع العربي وتعلموا لغته، ولكنهم لم يأخذوا القيم العربية ولا اللسان العربي. ولذلك فإنه وإن نافقهم في سلوكه، وتزيا بزيهم فإنه لم يستطع التخلي عن لغته ولسانه. وهي الحجة المعرفية التي مثلت بؤرة مركزية في هذه المقطوعة.

وَكِلْمَةٍ فِي طَرِيقٍ خِفْتُ أُعْرِبُهَا فَيُهْتَدَى لِي فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى اللَّحَنِ.

ولذلك فأساس الصراع في هذا النص معرفي، ويتجلى ذلك في التشكلات الآتية:

– التشكيل البياني للنص وتتحدد فيه جملة مقومات نصية ومحمولات معرفية جعلت منه مسكوكةً لغويةً رائعةً؛ فقد حدد هوية هذا المجتمع الإنساني في الألفاظ المؤسسة لكل بيت شعري: ومدقعين، يستخبرون، وخلة، وكلمة، ومع كل ملفوظ توجد حركية للأنا في تفاعلها مع هذا الوجود، حيث يحضر التحديد المعرفي لطبيعة هؤلاء الذين يصاحبهم "بسبروت"، والاستعارة المعرفية "وخلة أتقيه بها"،"ولا يطيش لهم سهم من الظنن" والتمثيل المعرفي "مثلان في الشبه".

– معرفة الشاعر بمن صحبهم جعلته يحدد طريقة العيش معهم وصحبتهم.

– فعل الاستخبار فعل معرفي، فهم أيضا يريدون معرفته على حقيقته، لأن الظن يقودهم إلى معرفة غير يقينية، لا تستوجب اتخاذ موقف واضح منه، خصوصا وأنه حاول

الاختفاء وراء المظاهر السلوكية التي تبدو عليهم، ومحاولة مماثلتهم في لباسهم وهزلهم وجدهم.

– المعرفة اللغوية أساس وجودي للإنسان، وإن استطاع أن يختفي وراء سلوك موهوم، واتقاء الغير بسلوك مماثل، فإن الشاعر لم يستطع إخفاء هويته اللغوية.

3. التشكلات المعرفية للخطاب الشعري عند المتنبي:

تعد المعرفة أساس الوجود الإنساني، فالإنسان عارف بطبعه، يُحَمِّل كل خطاب من المعرفة ما يحقق به كينونته الذاتية أو الاجتماعية، وقديما قيل "تكلم لأراك"، وقال الشاعر العربي:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم تبق إلا صورة اللحم والدم

– والناظر في أصول المعرفة الإنسانية يجدها تتمحور في دائرتين كبيرتين: الدائرة الدينية والدائرة الفلسفية. والباحث في الخطاب الشعري عند المتنبي يجد الجانبين مهيمنين على تلك التجربة، إذ يؤطر رؤيته المعرفية موروث ديني يتسلل إلى كل جزئيات تلك التجربة، إن على سبيل التمثل والانتماء، أو التعلم والمعرفة، مثلما هي فلسفته المتميزة بفكرة القوة والتأمل في الحياة وتقلباتها.

1.3 التشكلات الفلسفية:

استقى الإنسان معرفته الأولى مما علمه الله عز وجل، وما أودع فيه من قدرة على التعلم، وما زوده به من وحي وشرائع تنظم حياته الدنيوية وحياته الأخروية على السواء، هذا من جهة ومن جهة أخرى شكل التأمل الفلسفي في الوجود وتقلبات الحياة مادة معرفية غذت خطاباته المختلفة ومن بينها الخطاب الشعري.

والتجربة الشعرية عند المتنبي تحمل من الفلسفة ما يمثل قيمة جوهرية في شعره، يقول "عباس محمود العقاد": «والمتنبي على وجه خاص أولى من عامة شعرائنا (ما عدا المعري) بالنصيب الأوفى في علم المذاهب والآراء. لأن الحقائق المطبوعة لا تكاد تقر في نفسه حتى يرسلها إلى ذهنه ويكسوها ثيابا من نسجه؛ ويغلب أن يوردها بعد ذلك مقرونة بأسبابها معززة بحججها على نمط لا يفرق بينه وبين أسلوب الفلاسفة في التدليل إلا طابع السليقة وحرارة العاطفة»[11]، مما يجعل التفكير الفلسفي يتسلل إلى الخطاب الشعري عند المتنبي

وكأنه لازمة من لوازمه، إذ جل شعره خطاب للعقل وإن تلبس بالعاطفة، ورسائل للإنسان عامة والعربي على وجه الخصوص حتى ينهض من كبوته الوجودية.

وقد مثلت فلسفة القوة في شعر المتنبي بؤرة مركزية في تجربته، إذ كل شعره لا يخلو من الإشادة بها إن بوصفها في ذاتها والتعريف بمتعلقاتها والبحث في أبجدياتها، أو بمدح من جسَّد في نظره وجودها وصار عَلَماً دالًّا عليها كسيف الدولة الحمداني، أو بذم من خانته الشجاعة والقوة فكان فريسةً للأعداء وهدفاً للطامعين ومرمًى للسهام وهو لا يملك ما يحمي به وجوده وكيانه وعرضه ووجدانه.

ومن الأبيات التي عبَّرَ فيها عن منظوره الفلسفي لفكرة القوة قوله[12]:

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

يُؤْذِي الْقَلِيلُ مِنَ اللئامِ بِطَبْعِهِ من لا يَقِلُّ كما يَقِلُّ وَيَلْؤُمُ

والظُّلْمُ مِنْ خَلْقِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

وَمِنَ الْبَلِيَّةِ عَذْلُ مَنْ لَا يَرْعَوِي عَنْ غَيِّهِ وَخِطَابُ مَنْ لَا يَفْهَمُ

والأبيات في ترابطها وتسلسلها تمثل تنظيماً معرفيا لفكرة القوة، القوة التي جسدتها في النص ملفوظات مهيمنة في النسق التعبيري لإنتاج الدلالة، إذ النص، على اقتضابه، تكاد كل ألفاظه أن تكون دالة، وتحيل على ترابطات داخل الذهن تجعل المعنى بقدر ما يتشتت يتجمع في بؤرة مركزية واحدة: فالألفاظ الدالة بمفهوم الموافقة على القيمة المعرفية للفكرة التي يريد تسويقها حول فلسفة القوة: لا يسلم، الشرف الرفيع، يراق، الأذى، الدم، يؤذي، الظلم. ومن الألفاظ الدالة بمفهوم المخالفة على أهمية القوة: لا يظلم. ومن العبارات الدالة على أهمية العقل في توجيه المعرفة في النص: خطاب من لا يفهم.

ونظرة تأملية في الأفكار التي يسعى إلى بيانها حول فكرة القوة تبدو المفارقة المفهومية، إذ يعيد النظر فيما اعتاد الناس تصوره من أن العفة تتطلب الانسحاب من التجاذبات الحياتية، ومن الصراع المتأجج في الحياة، وإيثار السلامة. ويؤكد على معنى جديد يؤسس له بمسلمة معرفية وهي أن الشرف الرفيع لا يسلم من الأذى حتى تكون له قوة تحميه، ودماء تسيل حول حياضه، تحمي بيضته، وتعلي مقامه، لأن الشرف برفعته سيكون مرمى للسهام، وذلك شبيه قوله في مقطوعة أخرى[13]:

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ   يَخْلُو مِنَ الْهَمِّ أَخْلاَهُمْ مِنَ الْفِطَنِ
وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي جِيلٍ سَوَاسِيَةٍ   شَرٍّ على الحُرِّ من سُقْمٍ على بَدَنِ
حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمُ خِلَقٌ   تُخْطِي إذا جئتَ في استفهامها بِمَنِ

وكل ذلك يقود إلى أن الحكمة تكون في امتلاك القوة، وإلا كان الشخص معرضا للإهانة من كل من هَبَّ ودَبَّ، لأن اللئام بطبعهم يؤذون، ولا سبيل لدفع لؤمهم وأذيتهم إلا بالقوة إذ هي الكفيل والضامن. فالظلم سجية في النفوس مجبولة عليها. وإذا ما اختلطت عليك الأمور، ورأيت في دنيا الناس أشخاصا لا يَظْلِمون، وظننت ذلك تعففا منهم عن ممارسة هذا الفعل المرتبط بالقوة، إذا رأيت ذلك فلا يخدعنك المظهر فعدم الظلم ينطوي على علة وضعف وليس على حلم وعفة، وعليه فالحكمة تقتضي امتلاك القوة دفاعا عن الشرف الرفيع.

وهذه القضية المعرفية يعتقد المتنبي أنه من الصعب إدراكها وفهمها على حقيقتها، إذ من البلية التي تصيب العاقل في دنيا الجهال، والمتعفف في دنيا اللئام والضعيف في دنيا الأقوياء، أن هؤلاء الجهال واللئام لا يرعوون عن غيهم، ولا يحتكمون إلى قيم الحق، والعدل، فالأذى متأصل في طباعهم، سارٍ في نفوسهم، فإذا خاطبتهم بلغة العقل وقوة الحجة والمنطق لا يقلعون، بل الأدهى والأمر أنهم لا يفهمون.

وعليه فإن المعرفة المستبطنة في المقطوعة الشعرية تربط بين الحفاظ على الشرف من التدنيس والقوة التي تدافع عنه، فبمقدار امتلاك القوة يكون الحفاظ على الذات الفردية أو الجماعية، وبمقدار امتلاك اللؤم يكون الظلم والأذى، فذوو النفوس الكبيرة وإن امتلكوا من القوة ما امتلكوا فإنهم لا يظلمون إذ الحكمة متأصلة في نفوسهم.

وقد جسدت هذه النظرة بشكل جلي مقطوعة شعرية مماثلة يقول فيها[14]:

يَرَى الجُبَنَاءُ أَنَّ العَجْزَ عَقْلٌ   وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ
وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي الْمَرْءِ تُغْنِي   وَلَا مِثْلَ الشَّجَاعَةِ فِي الْحَكِيم
وَكَمْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا   وآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ
وَلَكِنْ تَأْخُذُ الآذَانُ مِنْهُ   عَلَى قَدْرِ القَرَائِحِ وَالعُلُومِ

والمقطوعة تؤكد على القيمة المعرفية لفكرة القوة المرتبطة بالشجاعة والانتقاص من الضعف والهوان والجبن المرتبط بالجهل، وعلى قدر ما تمتلك من قوة وشجاعة وحكمة

وعلم تتضح لك مسارب الحياة، وتنال المجد والسؤدد، وبمقدار الخمول والجهل والجبن والضعف يكون العجز.

ويلفت المتنبي النظر إلى مسألة جوهرية حول تلقي الإنسان للمعرفة، إذ بمقدار الكفاءات الذهنية للإنسان وبحسب المؤهلات العلمية التي يمتلكها يكون استقباله لها، وهي قضية أساسية في علم الإدراك الذي يسعى النقد المعرفي إلى بحث تشكلاته وتمظهراته على السواء. وفي ذلك إشارة نصية إلى ما يميز عصر المتنبي من علوم منتشرة ومعارف سائدة تحولت كمنظور ذهني إلى نسق فكري لبناء النص وإقامة الأمثال. ومن ناحية أخرى تحويل الواقع المعرفي إلى واقع نصي يجعل من ذلك المحيط المعرفي فضاء للاشتغال بالتأمل والتمثيل.

2.3 التشكلات التأملية:

التجربة الشعرية عند المتنبي هي تجربة إنسانية في بعدها العام، إذ «تكمن عظمة المتنبي في قدراته الإبداعية على تحويل التجربة الحياتية الخاصة إلى تجربة إنسانية عامة تلامس هموم كل إنسان»[15]، والمتنبي «ينطلق من رؤية جدلية لا ترى الشيء إلا ونقيضه معه، ولا وجود لأحدهما دون الآخر، فهي رؤية مغروسة في أعماقه، وتمتد لتشمل جميع عناصر الوجود»[16]، وعليه يَعُدُّ أبو الطيب المتنبي تقلبات الحياة بمثابة امتحانات متوالية، إذ هو «فيلسوف الحياة بسننها وصروفها، وليس فيلسوف الحياة مصادرها ومصائرها»[17]. فهي بنوازلها المتلاحقة ومحنها المتتالية تتطلب التأمل وأخذ العبر والدروس، وكون المتنبي شاعر الحكمة والفكرة فقد آثر على نفسه تدوين ما يراه جديرا بالذكر والتخليد، ومن ذلك هذه الوقفة التأملية مع ما تلحقه النوازل بالمرء، إذ فيها من العبرة ما يتطلب التأمل وفيها من المعرفة ما يستوجب التخليد.

والنوازل بمرارتها وقسوتها تَهُدُّ الكاهل، وتضعف النفس، ولا سبيل إلى تحويل تلك القسوة والمرارة وذلك الضعف والهوان إلا بالصبر، فهو الزاد لمن لا زاد له، وهو يتمثل في ذلك كمعرفة دينية قول الله عز وجل وتوجيهاته في أهمية الصبر وقيمته لمن تناله الأيام بنابها ﴿**واصبر وما صبرك إلا بالله**﴾ (سورة النحل الآية 127) وغيرها من الآيات القرآنية التي تعلي من قيمة الصبر وأهميته في تحويل الضعف إلى قوة.

ويتولد عن الصبر العزمُ، وأولو العزم من الرسل كان الصبر عنوان عزمهم، ولذلك فَتَمَثُّل أبي الطيب بالقيمة المعرفية لكل من الصبر والعزم جعلاه يؤكد على أهميتهما بالنسبة له، إذ الملفوظات النصية محيلة على الشاعر "عندي"، ويريد تسويقها إلى كل من أَلَمَّتْ به النوازل واعترضته العقبات. ويدلل على ذلك بما يحدث في دنيا الناس من مفارقات، إذ «كم من إنسان خاض الهلاك، فتخلص منه وكسب العلى، وكم من آخر جبان فلم يُوَقَّ بحذره، فَقُتِلَ وكَسَبَ مع القتل الذمَّ»[18]، ولذلك فالمضيم وهو الذليل لا قيمة لما يلبسه من ثوب جميل إن كان يلبس لباس الذل، إذ هو بمثابة ميت في الحقيقة، والتساؤل الإنكاري صارخ في دعوته "وهل تروق دفينا جودة الكفن". يقول في ذلك19:

قَدْ هَوَّنَ الصَّبْرُ عِنْدِي كُلَّ نَازِلَةٍ   وَلَيَّنَ الْعَزْمُ حَدَّ الْمَرْكَبِ الْخَشِنِ
كَمْ مَخْلَصٍ وَعُلًى فِي خَوْضِ مَهْلَكَةٍ   وَقَتْلَةٍ قُرِنَتْ بِالذَّمِّ فِي الْجُبُنِ
لا يُعْجِبَنَّ مَضِيمًا حُسْنُ بَزَّتِهِ   وَهَلْ تَرُوقُ دَفِينًا جَوْدَةُ الْكَفَنِ

والنص غني بالاستعارات المعرفية التي شكلت قوامه البنائي، فالصبر يهون، والعزم يلين، وهي مفاهيم معنوية يتحول فعلها إلى ما هو مادي، إذ يتمثل موقع الاستعارة «في الكيفية التي نمفهم بها مجالا ذهنيا ما وفقا لمجال آخر»[20]، وغاية هذه الاستعارات ليس غايته لفظية تزيينية بلاغية فحسب، وإنما لها غاية معرفية وهي تقديم معرفة والتأسيس لفكرة. ذلك «أن الاستعارة هي الآلية الأساسية التي نفهم من خلالها المفاهيم المجردة ونمارس الاستدلال المجرد»[21]، إذ الاستعارة في الشعر أساسها معرفي، وكل ما يحول الكلام العادي إلى الشعر بلغته وتصويريته قوامه التعابير الاستعارية، والتي تعبر في الحقيقة عن فكرة، وتقدم معرفة، وتستند إلى معطيات معرفية. ويتجلى ذلك بشكل كبير في الخطاب الشعري عند المتنبي، الذي تسري الحكمة المعرفية في كل ثناياه. ذلك أن «أي نص ينبغي له بالتحديد أن يوصل فكرة ما»[22]، وعليه جاء النقد المعرفي ليتجاوز الجوانب التحسينية في الصيغ التعبيرية، ويتخذها مستندا للبحث في البعد المعرفي الذي تحمله النصوص الإبداعية، ومن ذلك الاستعارة التي تكاد في الحقيقة أن تستحوذ على جماليات البناء الفني حسب ما هو مألوف، ولكنها مع الاستعارة المعرفية يصبح النظر إليها على أنها تشكل عمقا للمعرفة في النص الشعري. ذلك أن «الشكل يحتوي ويخترق المحتوى بطريقة تكسب

المجموع بينهما مدلولاً أعمق وأشد جوهريةً من ذلك المدلول الذي تحتوي عليه الرسالة المجردة أو الزخارف مستقلة»[23]، وهي الجدلية التي جاء هذا العمل لبيان بعض تمفصلاتها.

وعليه فالخطاب الشعري في الأبيات السابقة يقوم على التعارضات المنطقية والمعرفية في هذه الوقفة التأملية:

- مقدمة تحيل منطقياً إلى نتيجة: الصبر هون النوازل. العزم لين المراكب الخشنة.

- تأكيد الخطاب بأدوات لغوية محيلة على اليقين المعرفي: قد، أدوات التعريف المتعلقة بالملفوظات، الإضافة.

- زعزعة الأفكار الموروثة حول أن النجاة مرهونة بالسلامة، واستبدالها بفكرة جديدة وهي أن السلامة والنجاة في كثير من الأحيان مرهونة بخوض المعارك والمهالك.

- إقامة الحجة العقلية على ما ذهب إليه من فكرة تبدو غير منطقية وهي النجاة في طلب الهلاك.

- العمق المعرفي للاستعارات في النص يقوم على التأمل العقلي في تقلبات الحياة.

والدارس للخطاب الشعري عند المتنبي يجد التأمل في الحياة ديدنه المستمر، فكل موقف حياتي يمثل شرارة تقدح زناد الفكر فيكون التفكير، والتعبير وتحويل ذلك إلى حكمة سائرة.

4. خاتمة:

- يشتغل النقد المعرفي على النص الشعري بغرض بيان المكونات المعرفية للنص، والتي كانت المادة المعنوية لتشكيله، وهي بمثابة اللحمة التي تربط النص مع كل من منتجه ومتلقيه. فالغاية من كل قول هي توصيل معرفة إلى متلق حاضر أو مفترض، ولولا الأفكار التي كانت تدور في خلد الشاعر لما تشكلت العبارات الحاملة للمعاني، ولولا المعاني المتسللة إلى المتلقي لأصبح الكلام مجرد أصوات لا قيمة إبلاغية أو دلالية لها.

- تتعلق المكونات المعرفية للنص الشعري بآليات تشكيل النص من نسقية تعبيرية وتصويرية وآليات استقبال له، وبقدر وجود التَّسْنِين[24] الإنتاجي والقدرة على فك التسنين عند المتلقي تكون القيمة الإبلاغية والدلالية للنص.

- تتعلق قيمة النص الشعري بما يكتنزه من معرفة.

- ترتبط التشكلات النسقية للنزعة العقلية في الخطاب الشعري عند المتنبي بكل من التشكلات المنطقية، التي تعطي النص من المعقولية، والمقبولية ما يحقق له وجوداً معرفياً متميزاً في قوة الطرح. مثلما تتعلق التشكلات الحجاجية التي تعطي النص من فاعلية التأثير ما يحقق التواشج بين الأطراف الفاعلة في تلقي المعرفة النصية.

- تتمثل التشكلات المعرفية للخطاب الشعري عند المتنبي في الرؤية الفلسفية، التي أعطت المعرفة أبعاداً وجوديةً، وقيماً إنسانيةً، وفكريةً، واجتماعيةً أساسها رؤى عقلية لإثبات القضايا المراد تبليغها، أو التشكيك فيها وإعادة صياغتها بمنظور فلسفي جديد. وتعد فلسفة القوة من أبرز البؤر المحورية في النزعة العقلية في التفكير الفلسفي عند أبي الطيب المتنبي.

- مثلت النزعة التأملية في الخطاب الشعري عند المتنبي فضاءً رحباً للاشتغال الفكري في الحياة وتقلباتها، والناس وأحوالهم، وتداول الأيام والدول، والصراع بين الشعوب والأطياف المجتمعية، وكلها قضايا كان يعج بها الوجود الحضاري زمن المتنبي.

- الخطاب الشعري عند المتنبي تتنازعه ثنائية الفني والعقلي، الفني بإبداعية عالية أكسبت النص الخلود، والعقلي بفلسفيته ومنطقيته وحجاجيته أكسبته التجدد، فالأفكار لا تموت.

ويبقى البحث في الخطاب الشعري عند المتنبي مجالاً خصباً للدراسة خصوصاً من منظور النقد المعرفي، وما قمنا به هو مجرد إطلالة تتطلب الكثير من الجهد الذي يتجاوز حدود هذه الدراسة.

5. الإحالات والهوامش:

[1]- محمد عروس. 2021. النقد المعرفي : نحو إبدال منهجي .آداب الرافدين،مج. 51، ع. 86 (ملحق)، ص ص. 145-178.
https://search.emarefa.net/detail/BIM-1280587

[2] - ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني: الفسر، شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، المجلد الأول، تحقيق رضا رجب، دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سوريا، 2004، ص4،5.

[3]- مختار الفجاري: خطاب العقل في تراث ابن المقفع وظائف الخطاب بين الحضور والغياب، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة الثانية، العدد 04، 1435 هـ، ص497

[4]- فاروق حسان: ثقافة المتنبي، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط1، مصر، 2008، ص 103.

[5]- أبو الطيب المتنبي: ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1983، ص 232.

6 - المصدر نفسه، ص232.

[7]- الجرجاني، علي بن محمد السيد الجرجاني: معجم التعريفات، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ص196.

[8]- أبو الطيب المتنبي: ديوان المتنبي، ص 170،171.

[9]- أبو الحسن الواحدي: شرح الواحدي لديوان المتنبي، ضبط وشرح وتعليق وتخريج ياسين الأيوبي وقصي الحسين، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان،1999، ص 761.

[10] - أبو الطيب المتنبي: ديوان المتنبي، ص 171.

[11]- عباس محمود العقاد: مطالعات في الكتب والحياة، دار المعارف ط4، 1987، مصر، ص 146.

[12] - أبو الطيب المتنبي: ديوان المتنبي، ص 171.

[13]- المصدر نفسه، ص 170.

[14] - المصدر نفسه، ص 232.

[15] - حسين الجداونة: جدلية الأنا والآخر في شعر أبي الطيب المتنبي، مغامرة في القراءة والتأويل، الطبعة الإلكترونية الأولى، إربد، الأردن، 2022، ص 31.

[16] - المرجع نفسه، ص 246.

[17]- عباس محمود العقاد: مطالعات في الكتب والحياة، ص 148.

[18] - ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني: الفسر، شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، المجلد الثالث، حققه وقدم له رضا رجب، ط1 دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، 2004، ص 680.

[19]- أبو الطيب المتنبي: ديوان المتنبي، ص171.

[20] - جورج ليكوف: النظرية المعاصرة للاستعارة، ترجمة طارق النعمان، سلسلة مختارات 1، مكتبة الاسكندرية، مصر، 2014، ص 06.

[21] - المرجع نفسه، ص08.

[22] - صمويل ر. ليفن: البنيات اللسانية في الشعر، ترجمة الولي محمد والتوزاني خالد، منشورات الحوار الأكاديمي، المغرب، 1989، ص76.

[23] -المرجع نفسه، ص 10.

[24]- التسنين: وهو مجموعة من القواعد التي تمكننا من إعطاء معنى للعلامة، أي وضع شفرة نصية لغوية أو ثقافية أو سياقية أو غيرها في النص بحيث لا يمكن فهم النص وتأويله إلا بالمعرفية الضمنية لتلك الشفرة. (أمبرتو إيكو: السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة أحمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2005، ص 48.

قائمة مصادر البحث ومراجعه:

❁ القرآن الكريم برواية حفص.

المصادر:

1- أبو الطيب المتنبي: ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1983.

المراجع:

الكتب بالعربية

2- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني: الفسر، شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، المجلد الأول، المجلد الثالث، تحقيق رضا رجب، دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سوريا، 2004.

3- أبو الحسن الواحدي: شرح الواحدي لديوان المتنبي، ضبط وشرح وتعليق وتخريج ياسين الأيوبي وقصي الحسين، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان،1999.

4- حسين الجداونة: جدلية الأنا والآخر في شعر أبي الطيب المتنبي، مغامرة في القراءة والتأويل، الطبعة الإلكترونية الأولى، إربد، الأردن، 2022.

5- فاروق حسان: ثقافة المتنبي، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط1، مصر، 2008.

6- الجرجاني، علي بن محمد السيد الجرجاني: معجم التعريفات، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د.ت.

7- الكتب المترجمة:

8- أمبرتو إيكو: السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة أحمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2005.

9- جورج ليكوف: النظرية المعاصرة للاستعارة، ترجمة طارق النعمان، سلسلة مختارات 1، مكتبة الاسكندرية، مصر،

10- صمويل ر. ليفن: البنيات اللسانية في الشعر، ترجمة الولي محمد والتوزاني خالد، منشورات الحوار الأكاديمي، المغرب، 1989.

11- المقالات:

12- محمد عروس. 2021. النقد المعرفي : نحو إبدال منهجي .آداب الرافدين،مج. 51، ع. 86 (ملحق)، ص ص. 145-178.

https://search.emarefa.net/detail/BIM-1280587

13- مختار الفجاري: خطاب العقل في تراث ابن المقفع وظائف الخطاب بين الحضور والغياب، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة الثانية، العدد 04، 1435 هـ.